
٤٤- الحركة الإسلامية

رؤية نقدية هل هي شعب الله المختار؟

نحن نؤمن بأن مستقبل هذه الأمة، بل مستقبل العالم كله مرتبط بالإسلام والحركة الإسلامية، فالإسلام هو وجدان الأمة ومحركها، وهو دينها وثقافتها وحضارتها، ولن تتحرك تلك الأمة وبالتالي تواجه التحديات أو تتقدم أو تخرج من أزمتها الطاحنة، إلا بالإسلام كدين، وكثقافة وكحضارة وكأيديولوجية أيضاً، وإذا كان الإسلام كذلك، فإن الحركة الإسلامية من المفروض أن تكون طليعة هذه الأمة والمعبر عن وجدانها، وقاطرة للتغيير وخميرة النهضة، وبالتالي فإن برنامجاً صحيحاً واستراتيجية صحيحة، وتكتيكاً صحيحاً ضرورة من ضرورات تلك الحركة، وضرورة من أجل مستقبل الأمة، وكذلك فإن الإسلام كمنظومة فكرية وسياسية واجتماعية قادر على حل مشاكل العالم، وقادر على إنقاذ المهمشين والمستضعفين وقادر على وقف الاستكبار والظلم في العالم، وهو البديل المرشح الآن بعد فشل الماركسية لأن يكون أيديولوجية الفقراء والمستضعفين في مواجهة الاستكبار العالمي.

ولأن الأمر كذلك فإن الحركة الإسلامية تحتاج الآن بالتحديد لنوع من النقد والنقد الذاتي، يمارسه أبناء الحركة فرادي أو مجتمعين، أو الاستفادة من التجارب والخبرات وطرح الأسئلة الصريحة والقاسية والبحث عن الخلل وتحديده وعلاجه.

ومن هذه الأسئلة.. هل وصلت الحركة الإسلامية إلى طريق مسدود ولماذا لم تصل إلى أهدافها بعد كل هذا الزمان وكل هذه الجهود والتضحيات؟ هل كان الخلل في المنهج أو في الممارسة، أو في عدم كفاءة القيادات؟ وهل كانت الأطروحة الفكرية نفسها صحيحة؟، ولا بد أن نقول هنا إن ما سوف نقدمه من نقد أو تحليل في هذا الإطار هو نوع من الاجتهاد بمعنى أنه رؤية فيها صواب وخطأ والعصمة لرسول الله ﷺ وحده، ويجب أن نقول هنا أيضاً، إن التركيز على الأخطاء والخطايا لا يعني أن الحركة لم يكن لها منجزات أو إيجابيات، بل لها الكثير بالطبع، ولا يعني أيضاً أن أسباب الفشل كانت فقط بسبب العوامل الداخلية ولكن أيضاً كان هناك عوامل خارجية بعضها عالمي وبعضها محلي من مؤامرات ومطاردات وتضييق وغيرها، ولكن مع كل قسوة ذلك، فإننا نري أن لا حركة هناك تهزم من الخارج مهما كانت التحديات، بل تأتي الهزائم عادة من الخلل الداخلي.

سنحاول الإجابة عن السؤال المطروح بقوة الآن على الساحة، وهو

هل وصلت الحركة الإسلامية - وتحديدًا في مصر - إلى طريق مسدود؟، ونجيب بصرامة نعم لأن الحركة بكل تياراتها لم تعد قادرة على تطوير نفسها أو معاودة الانتشار أو الوصول إلى أي نتائج استراتيجية، بل بعضها اعترف بخطئه في مجمل ممارساته السابقة، وهو اعتراف يدل على الشجاعة، ويدل على ممارسة المراجعة والنقد الذاتي الجماعي، وهو أمر محمود بالطبع، ولكن الطريقة الفكرية التي تمت بها المراجعة وكذلك الآراء التي وصلت إليها تلك المجموعة لمواجهة المستقبل والحاضر تعبر في جانب منها عن نفس الأزمة الفكرية، أي أنها قرأت الواقع خطأ مرتين، وليس هنا مجال مناقشة آرائها الجديدة نقطة نقطة، ففيها الكثير من المنطلقات الصحيحة والبداهيات التي كانت غائبة ولكنها افتقرت إلى تحديد الخطأ المنهجي الذي هو أصل الفشل والتخبط في كل الحركات والممارسات، ومن ثم وقعت في أخطاء فادحة أخرى عند تطبيق مفاهيمها الجديدة على الواقع الحالي والمستقبل.

والخطأ المنهجي إذا ما تم وضع اليد عليه، فسوف يربحنا كثيرًا من القضايا الجانبية، فالعيب لم يكن في مشروعية الحركة كما يزعم البعض، ولا في عدم كفاءة القادة أو عدم إخلاصهم أو انتهازيه بعضهم، ولا في التقاعس عن تقديم التوضيحات، ولكنه كان خطأ بنيويًا، ذلك أن الحركة لم تسأل نفسها في البداية، من نحن، وماذا نريد، وعلي أي أرضية نتحرك.

هل نحن دين جديد، أم فرقة دينية جديدة، ماهي العلاقة الصحيحة مع الأمة والمجتمع، أو سألت نفسها أسئلة من ذلك النوع وأجابت إجابة خاطئة عليها، ولا شك أن هذا الخلل البنيوي لم يؤد فقط إلى الوصول إلى طريق مسدود، بل أدي إلى ظهور جماعات وتيارات وممارسات وأفكار متطرفة، ذلك أن عدم اتخاذ الموقف الصحيح سوف يؤدي إلى ظهور انحرافات على الجانبين تهاون - تشدد.

وبديهي أن الحركة الإسلامية ليست ديناً جديداً، بل هي ملتزمة بما استقر عليه المجموع من عقائد وقضايا وأفكار، وبديهي أن الحركة الإسلامية ليست فرقة دينية جديدة، فالواقع لا يحتمل ظهور فرق دينية جديدة، وبالتالي فهي ليست متميزة عن الأمة لا في العقائد ولا في الأفكار، وإن كان لبعض العلماء داخل الحركة أو خارجها اعتراضات على بعض القضايا، فصحف الحركة وأدبياتها واجتماعياتها ليست مجالاً لمناقشة هذا الخلاف، بل الخلاف على القضايا العلمية يكون داخل معاهد العلم ومن خلال العلماء، والحركة لا علاقة لها بهذا من قريب أو بعيد، وهذا يدفعنا إلى الإجابة عن السؤال: من نحن؟ والمفروض أننا جزء من هذه الأمة، قررنا تحمل تضحيات أكبر ومسئوليات أكبر وليس وجهة أو تصدراً أو قيادة وبالتالي فنحن نلتزم بأن نكون مجرد طليعة للأمة لخوض تحدياتها الاستعمارية - الصهيونية - التخلف - الاستبداد السياسي - الظلم الطبقي

- التعصب.. إلخ، وليس أن نكون بديلاً عن الأمة، لأن الأمة - كل الأمة - مسؤولة عن خوض المعارك والتحديات.

أي أننا خلايا حية تعمل على تنشيط باقي خلايا الجسد، وليس بمعزل عنه أو بديلاً عنه، لأن ذلك يعني أن نتحول إلى ولاء أو سرطان ونضر مهما كانت نوايانا حسنة.

وهذا يطرح بدوره فكرة تسمية الجماعة وهو من وجهة نظري مسمي يعبر عن الخلل النبوي المذكور، حتى لو تم تخفيف الأمر بأنها ليست جماعة المسلمين بل هي جماعة من المسلمين، إننا مرة أخرى مجرد طليعة، أو قاطرة أو حتى حزب سياسي ولا عيب في ذلك، لنا أطروحة بشرية تستند إلى الإسلام كمرجعية، ولنا شعب الله المختار، ولا نمتاز عن الناس بشيء، ونحن مجرد حلقة من حلقات النضال والكفاح سبقتها حلقات وتبعتها حلقات، بمعنى أننا لا نمتلك كل الحقيقة، ولنا الذين اخترعنا الإسلام، ولا حتى الحركة الإسلامية المعاصرة، فالحركة الإسلامية في رأيي هي كل الحركات التي حاولت أن تقود الأمة لمواجهة التحديات الخارجية والداخلية، إنها عبد الكريم الخطابي، وعبد القادر الجزائري وعمر المختار، وعمر مكرم ومحمد كريم والنديم ومصطفى كامل ومحمد فريد وأحمد حسين وعز الدين القسام وكل من قاوم الاستعمار والصهيونية أو الاستبداد، نحن إذن مجرد حلقة سبقتها

حلقات وتتبعها حلقات والوقوف عند حلقة واحدة هو نوع من الجهل والتعصب والجمود، وهو خطأ وخطر على كل مستوى.

كلمة الجماعة إذن، والممارسات المرتبطة بالجماعة - شكلت نوعاً من العزلة والانعزال، وطرحت نوعاً من التكفير السلبي، أو على الأقل تمييز من هم بداخل الصف عن هم ليسوا به، أو نوعاً من التعامل الخاص بين أفراد الجماعة الواحدة، وبما أن الإسلام ملك للأمة كلها، فهذا نوع من الاحتكار والتكفير الصامت غير المعلن!! وهو أمر خطير جداً شكلاً ومضموناً.

فكرة الجماعة، والصف، والتنظيم قادت إلى إشكاليات أخرى، فمكاسب الجماعة أو الصف أو التنظيم يجب المحافظة عليها وعدم إهدارها، حتى لو كان ثمن ذلك التخلي عن مطالب الجماهير، أو تأييد موقف يضر بالحريات أو يضر بالفقراء أو يمثل موقفاً صامتاً أو مراوفاً تجاه قضية ما، وبديهي أن الجماعة أو الصف أو التنظيم ليست غاية بل هي وسيلة لتحقيق أهداف وغايات وإذا تعارضت الوسيلة مع الغاية يمكن التخلي عن الوسيلة وبالتالي لو كانت المسألة تجري على أساس أننا مجرد حزب سياسي يري رؤية وبرنامجا معيناً في وقت معين يمكن أن يتغير ويتطور، ويمكن حل الحزب وعدم التمسك به إذا كان استمراره يتعارض مع المواقف المبدئية والأخلاقية، لكان الأمر أسهل كثيراً، ولعل هذا يفتح الحديث عن الخطأ الخطير الذي وقعت فيه الحركة الإسلامية في مصر

حين لجأت إلى أسلوب العنف - التربية ولا شك أن الأسلوبين خاطئان، وغير ملائمين لأوضاع مصر الاجتماعية والسياسية، والصحيح أن هناك وسطاً بين هذين، وهو النضال السياسي، ولعل هذا يطرح تحليل برامج الجماعات - التي ركزت على قضايا ليست محل اهتمام أي حركة صحيحة باعتبارها ليست ديناً جديداً ولا فرقة دينية جديدة، ولا شعب الله المختار، فالتركيز على فكرة الدعوة مثلاً، هو تفكير غير صحيح فالدعوة تكون لغير المسلمين - هل ندعو المجتمعات الإسلامية إلى الإسلام مثلاً، ولكن الصحيح هو النضال من أجل إيقاظ النائمين وتحريك السليبين والنضال من أجل توسيع الحريات، والنضال من أجل رفع الظلم الاقتصادي أو مواجهة الفساد وعدم تكافؤ الفرص، أو مواجهة الكيان الصهيوني أو مواجهة التخلف والجهل، أو حتى طرح أنفسنا بالتحالف مع القوي المناهضة للعولمة في العالم كرأس رمح في مواجهة الاستكبار الأمريكي، وطرح الإسلام كمنظومة أو كأيدولوجية للفقراء والمستضعفين في العالم لمواجهة المشروع الأمريكي الصهيوني العولمي وتحالف الرأسماليين والعسكر خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر.

الخطأ المنهجي الآخر - هو عدم إدراك الحركات الإسلامية مسألة الهزيمة الحضارية فلا شك أننا كأمة وكحضارة مهزومين أمام الحضارة الغربية، وفي غضون القرنين الأخيرين على الأقل تم ذلك وتكرس،

وأمریکا وإسرائيل والغرب يمتلكون تفوقاً علمياً وعسكرياً واقتصادياً وسياسياً علينا، ولا بد أن ندرك هذا المتغير الخطير في حركتنا وكذلك في طريقة فهمنا للأمور وفي مطالبنا السياسية والاجتماعية وعلاقتنا بالحكومات فلسنا في عصر الدولة العباسية مثلاً، حيث يقول الخليفة للسحابة التي تمر أمامه: أمطري حيث شئت فسوف يأتيني خراجك، فالذي حدث أننا كأمة وحضارة مررنا بعدد من المراحل، فالمنحني الحضاري لنا صعد، ثم ثبت ثم بدأ في النزول، ولا بد من الاعتراف بأننا في حالة نزول حضاري الآن والسيادة في العالم ليست لنا، واتخاذ قرار معين يمكن أن يؤدي إلى ضربنا بصواريخ كروز مثلاً أو التعرض لعدوان على غرار العراق وأفغانستان وبالتالي فيدنا ليست مطلقة في كل شيء.

الصحيح أن هناك تداخلات دولية وإقليمية لا فكاك منها، وأنه مهما كانت قوتنا فأعداؤنا أقوى بمراحل وبالتالي يجب عدم التركيز على فكرة الحرب النظامية بل المواجهة بالإنسان سلاح الاستشهاد على مستوى التحديات الخارجية، وعلى مستوى محاولة النهضة يجب أن نعمل على عدة مراحل، أي يجب عدم حرق المراحل يجب أن نعترف أولاً بأننا في حالة نزول حضاري، ينبغي تقليل عجلة النزول، ثم تقليل سرعة النزول، ثم إيقاف النزول، ثم إحداث انقلاب في المنحني باتجاه الصعود، ثم الصعود، وهذا يقتضي بالطبع مجهوداً جباراً لا بد من بذله وإلا فسوف

تهدر طاقاتنا دائما ونعود كل مرة من حيث بدأنا.

يجب أن نحدث نوعاً من التراكم المعرفي والخبرة المنقولة دائماً، وأن نضع في اعتبارنا أننا كحركة في مرحلة ما وبمسمي ما لا تستطيع ولا ينبغي لها أن تحاول حل كل الإشكاليات وأنها ستحقق كل شيء، بل تعمل على إحداث نوع من التراكم الإيجابي والتقدم خطوة أو خطوات حتي لا تضيع الجهود، وهذا يقتضي نوعاً من التواضع وطول النفس، وهذا يفسر نجاح بعض الحركات التي حددت لنفسها نوعاً معيناً من النشاط الاجتماعي مثلاً فقدمت إسهاماً إيجابياً، في حين أن الحركات التي وصفت نفسها بأنها كل شيء: حركة سياسية وعقائدية واجتماعية ومالية وسلفية ومستقبلية وصوفية وعسكرية.. إلخ فإنها تقريباً فشلت في كل شيء مع ثمن باهظ وهائل بلا مبرر.
